بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ابن مقرب العيونى هو أحد شعراء الخليج العربى القدامى الذين لم ينالوا ما هم جديرون به من العناية الكبيرة والدرس المستفيض ، رغم ما تحلى به هذا الشاعر من موهبة شعرية متعددة الجوانب ، وبراعة واقتدار كبيرين رفعاه الى مصاف كبار الشعراء .

ولعل للباحثين والدارسين — سواء من هذه المنطقة أو غيرها — عذرا فيما يبدو من قلة الجهد المبذول وضآلة العناية الموجهة لابن مقرب وأمثاله من شعراء المنطقة القدماء . ومرد ذلك العذر الى قلة ما اشتملت عليه المصادر والمراجع من أخبار تكشف لنا عن كل ما يتعلق بحياة هؤلاء الشعراء ، وقد يكون سبب ذلك فيما يتصل بابن مقرب هو العزلة التى كان يعيش فيها اقليم البحرين وطن الشاعر فى القرن السابع الهجرى بسبب بعده عن بغداد مركز الخلافة فى ذلك الوقت ، مما حدا بالمؤرخين الى الانصراف عنه الى حواضر الخلافة ، يسجلون فيها كل خطرة لشاعر أو لفظة لأديب .

ورغم هذه الصعوبة فقد استعنت بالله ، وشحذت القلم لأكتب هذا البحث عن ابن مقرب ومما دفعنى الى ذلك عدة أمور :

أولا : كون ابن مقرب يمثل — ظاهرة متفردة فى عصره — اذ أنه عاش فى القرن السابع الهجرى ، وهو زمن كانت فيه الجزيرة

العربية فى منتهى العقم الفكرى والتخبط فى دياجير الظلم والجهل ، كما كان الشعر يغلب عليه المحسنات اللفظية والزخارف البلاغية دون الاهتمام بالمضمون ، فجاء ابن المقرب ليجدد هذا الشـــعر ، ويعيد له صولجانه القديم ، فكان بحق ظاهرة متفردة فى عصره تستأهل العناية والاهتمـــام .

ثانيا : بيان منزلة ابن مقرب الشعرية ولفت الأنظار اليه ، والى ما تحلى به من موهبة شعرية ، وما دبجه من قصائد رصينة أعادت الى شرق الجزيرة العربية اعتبارها ومكانتها وأمجادها الشعرية التليدة ، ولعل ذلك يعوض بعض ما أصاب هذا الشاعر من ظلم واجحاف نتيجـــة اهمال الدارســـين .

ثالثا : أن الواجب يتطلب منا نحن أبناء المنطقة أن نســـعى بكل جهد الى ابراز تراثها وتعريف العالم من حولنا بأدبائها خصوصا وأن منطقتنا تشهد نهضة علمية وحضارية تحتم على كل واحد منا ألا يبخل عليها بأى عطاء .

وقد اقتضانى هذا البحث أن أقسمه الى ستة فصـــول :

فى الفصل الأول درست عصر الشـــاعر من الناحية السياســـية والاجتماعية والأدبية وذلك بشكل موجز .

وفى الفصل الثانى درست حياة الشاعر نفسه وبينت طبيعـــة علاقته بأسرته ومجتمعـــه ، وتحدثت عن رحلاته واتصـــالاته بأمراء ورجالات وعلماء عصره ، وألقيت الضـــوء على حقيقة الخـــلاف حول معتقده ، ثم أفردت جزءا من الفصل للحديث عن تاريخ وطنه وأهـــم رجالاته وحكامه .

وخصصت الفصل الثالث للحديث عن ديوانه ، وأوردت نســـخه المخطوطة ، والمطبوعة حسب ترتيبها الزمنى .

أما الفصل الرابع فقد تحدثت فيه عن أهم الأغراض التى قال فيها شعرا ، وتناولت ذلك بالتحليل والدراسة الفنية •

وفى الفصل الخامس درست خصائص شعر ابن مقرب ، وبينت أهم ما تميز به هذا الشعر من سمات وخصائص فنية ، ثم عرضت لآراء النقاد والأدباء فى شعره •

أما الفصل السادس فقد قارنت فيه بين شاعرنا وبين شاعر العربية الكبير المتنبى ، نظرا لما بين شعر الرجلين من تشابه وتقارب ملحوظين •

ولعلى بهذا الجهد المتواضع أكون قد أديت لهذه المنطقة التى نشأت وترعرعت فيها بعض ما على من دين وأمانة ، وقدمت للمكتبة الأدبية وللمهتمين بالمنطقة وأدبها ما يفيد ويغنى •

ولا أنسى فى الختام أن أتقدم بالشكر والعرفان لأستاذى الفاضل الدكتور حسن جاد حسن على ما أولانى من العناية والتشجيع ما دفعنى على الاستمرار وبذل الجهد حتى ظهر هذا البحث فى هذه الصورة التى هو عليها •

والله من وراء القصد •

سامى قاسم عبد العزيز المناعى

الفصل الأول

عصر الشاعر

---

* الحياة الاساسية
* الحياة الاجتماعية
* الحياة الأدبية

... سأحاول فى هذا الفصل أن ألقى بعض الأضواء على عصر الشاعر من النواحى السياسية والاجتماعية والأدبية بصورة موجزة وبقدر ما يكشف لنا عن الظروف والملابسات التى أحاطت بالشاعر فأثرت فيه وتأثر بها ، وكان لها صدى فيما نظمه من شعر وما دبجه من قصائد ، وذلك فى الفترة التى عاشها من سنة ٥٧٢ هـ الى سنة ٦٣٠ هـ .

الحيـاة السياسـية :

(١)

شهدت هذه الفترة من الناحية السياسية أحداثا جساما أثرت فى مستقبل الدولة الاسلامية العريضة ردحا من الزمن ، ومن أخطر هذه الحوادث على الاطلاق ، الحروب الصليبية من الغرب ، والغزو المغولى من الشرق . وأظهرت هذه الحوادث من ناحية أخرى مدى التفكك والانقسام اللذين استشريا فى جسم الدولة العباسية كما سنرى . ففى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى زالت الدولة السلجوقية من العراق نهائيا ، وبالتحديد فى سنة ٥٩٠ هـ ، ويعتبر السلطان مسعود آخر سلاطين السلاجقة الأقوياء ، اذ أنه لما توفى هذا السلطان سنة ٥٤٧ هـ ، لم يعد هناك من سلاطين السلاجقة فى العراق من يستطيع أن يشغل الفراغ الذى خلفه ، لذلك تعتبر وفاته بداية لانحلال البيت السلجوقى فى العراق[١] ، وكانت الخلافة العباسية آنذاك فى أوج ضعفها ، اذ أن السلطة الحقيقية كانت بيد المتغلبين على عاصمة الخلافة من سلاجقة أو بويهيين قبلهم . وقد استمر السلاجقة فى الحكم حتى قضى عليهم الخوارزميون سنة ٥٩٠ هـ ، وذلك

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٠٣ .

أن الخليفة العباسى الناصر استعان بخوارزم شاه تكسن ضد طغرلبك (آخر سلاطين السلاجقة فى العراق) ، بعد أن وعده بأن يملكه البلاد التى بيده ان هو استطاع القضاء عليه[٢] ، وقد استطاع خوارزم شاه فعلا أن يقتل طغرلبك سنة ٥٩٠ هـ[٣] . وهكذا زالت دولة السلاجقة نهائيا من العراق بعد أن حكموا ما يزيد على القرن من الزمان (٤٤٧ هـ — ٥٩٠ هـ) .

وبدأ عصر جديد من عصور الخلافة العباسية ، أو هكذا ظن خلفاء بنى عباس ، فقد حسبوا أنه بزوال السلاجقة سيبدأ عهد جديد فى حياتهم السياسية يتمتعون فيه باستقلالهم بعد أن زال عدوهم الأكبر الذى يتمثل فى آل سلجوق ، ولكن الخوارزميين الذين تحمسوا لازالة الدولة السلجوقية كانوا فى الواقع يعملون لأنفسهم وفق خطة وضعوها منذ قامت دولتهم ، فقد بدأوا يتطلعون الى فرض سيطرتهم على الخلافة العباسية ، وعملوا جاهدين على أن يحتلوا ما كان للسلاجقة من نفوذ سياسى فى الحاضرة الاسلامية ، وكان من أثر تعارض سياسة الخوارزميين مع سياسة الخلفاء العباسيين أن قام بين الفريقين صراع طويل[٤] انتهى بانتهاء القوتين معا على يد المغول كما سيأتى .

كما أدى زوال السلاجقة الى انقسام دولتهم الواسعة الى الدويلات الأتابكية[٥] ، وبالتالى الى وصول الشرق الاسلامى الى درجة من الانحلال لم يسبق أن عرفها المسلمون .

---

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٥ ، ص ٩٤ .

(٣) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك .

(٤) حافظ أحمد : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى — دار الفكر العربى . ص ٤٨ .

(٥) د. حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية ، ص ١٠٢ ، والأتابك : كلمة مكونة من مقطعين : « بك » ومعناه امير و « أتا » معناه اب ، والأتابك هو الذى يربى أولاد الملوك .

وأشهر دول الأتابكة جميعا هى أتابكية الموصل التى أسسها عماد الدين زنكى نظرا لاتساع المسرح الجغرافى الذى كانت تشغله فى شمال بلاد ما بين النهرين وفى بلاد الشام ، هذا فضلا عن عظم الدور الذى لعبه عماد الدين زنكى وأبناؤه من بعده فى حرب الصليبيين، وكان عماد الدين من كبار القواد السلجوقيين المقيمين فى بغداد ، ثم أرسله السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه واليا على الموصل سنة ٥٢٢ هـ ، وما زالت جيوشه تستولى على البلاد المجاورة واحدة بعد الأخرى حتى ملكها جميعا ومنها حلب ، ثم حدث أن قتل عماد الدين على يد غلمانه وهو يحاصر قلعة جعبر سنة ٥٤١ هـ ، وسار ابنه نور الدين محمود الى حلب وملكها وعظم شأنه فيما بعد ونال شهرة كبيرة فى حروبه مع الصليبيين ، وبقيت حلب فى آل زنكى الى أن ملكها صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٧٩ هـ[٦] .

(٢)

هذا عن بغداد حاضرة الخلافة العباسية ، أما مصر فقد كانت فى هذه الفترة تحت حكم الدولة الفاطمية الآخذة فى التدهور والانحلال نتيجة الثورات التى قام بها الأتراك الذين أتلفوا قصور الخلفاء وخربوا كل ما وصل الى أيديهم ، وما صاحب ذلك من انتشار القحط والمجاعة وفى وسط الاضطراب الذى انتشر فى قلب الدولة السلجوقية والشام ومصر ، ظهر عدو أنكى وأشد هو الخطر الصليبى ، اذ أنه فى سنة ٤٩٠ هـ ، سارت الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام ، واستولى الصليبيون على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ[٧] . وقد ظلت البلاد الشامية تئن تحت ما أصابها من ذلة على أيدى الصليبيين ، كما كان المصريون يتلقون باستمرار تهديد الصليبيين بسبب ما بلغه الفاطميون

---

(٦) ابن الأثير : تاريخ الدولة الاتابكية ، ص ١٦٥ .

(٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ، ص ١١٧ .

من ضعف ، ولولا ظهور عماد الدين زنكى ومقاومته للصليبيين كما قلنا لكانت مصر من البلاد التى يسهل على الصليبيين الاستيلاء عليها .

وكان استيلاء عماد الدين زنكى على (الرها) التى كانت تسيطر على الطريق بين بلاد ما بين النهرين وبين البحر الأبيض المتوسط سنة ٥٣٩ هـ بمثابة ضربة قاضية أصابت الصليبيين ، وترتب على ذلك قدوم الحملة الصليبية الثانية الى بلاد الشام سنة ٥٤٢ هـ فى عهد نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، ولكن هذه الحملة فشلت فعادت من حيث أتت . ونظرا لأهمية مصر وموقعها وخيراتها ، فقد تسابق الصليبيون ونور الدين للاستيلاء عليها ، واستطاع نور الدين فعلا أن يستولى عليها بمساعدة أسد الدين شيركوه سنة ٥٦٤ هـ ، الذى اتخذه الخليفة الفاطمى العاضد وزيرا له ، ولكنه لم ينعم بمنصب الوزارة أكثر من شهرين وخمسة أيام[٨] ، فاختار العاضد مكانه صلاح الدين الأيوبى فى هذا المنصب ، كما قبل العاضد حماية نور الدين على مصر من الصليبيين .

ومنذ آلت السلطة الى صلاح الدين فى مصر ، أخذ يعمل على ازالة الدولة الفاطمية نهائيا ، فكان أن خطب للخليفة العباسى المستضىء سنة ٥٦٧ هـ ، وكان الخليفة العاضد فى ذلك الوقت على فراش الموت ، وعندما توفى انتقل حكم مصر الى صلاح الدين انتقالا هادئا[٩] .

وفى بداية حكمه بدأ صلاح الدين بتوطيد أقدامه فى البلاد المصرية ، وذلك بالعمل على تحصينها ضد القوى المعادية ، فقضى على بقايا الفاطميين فى مصر ، وحصن نفسه ضد سيده نور الدين ، كما تحصن ضد ما يمكن أن يقوم به الصليبيون من أعمال عدائية ، ثم أخذ يعمل على توحيد جميع القوى الاسلامية الموجودة فى الشرق الأدنى

---

(٨) المرجع السابق — ج ١١ ، ص ١٥٣ .

(٩) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٦٤ .

تحت سلطانه ، حتى يستطيع أن يوجه هذه القوى مجتمعة ضد هدفه الأساسى وهو الصليبيين ، وقد أصبح صلاح الدين منذ وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ ، لا ينازعه منازع فى هذا المسرح التاريخى[١٠] .

وهكذا سار صلاح الدين سنة ٥٧٨ هـ الى بلاد الشام ، وأخضع كل بلاد ما بين النهرين ما عدا الموصل التى خضعت له عام ٥٨٢ هـ ، واستطاع أن يمد نفوذه الى حلب ، وبذلك أصبحت البلاد الشامية وبلاد ما بين النهرين وبعض كردستان خاضعة لصلاح الدين الذى استطاع بعد ذلك كله أن يوجه هذه القوى الاسلامية مجتمعة لمحاربة الصليبيين ، وألحق بهم أول هزيمة منكرة فى موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ ، واسترد بيت المقدس من أيديهم ، وأدى ذلك الى قيام حروب الصليبيين الثالثة ، ولكنها لم تستمر طويلا بسبب اختلاف قادة الحملة الصليبية ، فاضطروا الى عقد صلح مع صلاح الدين سنة ٥٨٨ هـ[١١] ، وتوفى صلاح الدين فى دمشق فى السنة التالية أى فى سنة ٥٨٩ هـ .

ما أن توفى صلاح الدين حتى أصبحت الدولة الأيوبية المتماسكة الموحدة تتهددها عوامل التفكك والانحلال ، لأسباب أهمها اختلاف البيت الأيوبى على نفسه ، اذ أراد أبناء صلاح الدين واخوته أن يقتسموا التركة الهائلة التى تركها من بعده[١٢] ، وعلى الرغم من انقسام هذه البلاد فيما بين أفراد الأسرة الأيوبية فيما بعد فان النزاع لم ينقطع بين هؤلاء الأخوة[١٣] .

الا أن العادل أخا صلاح الدين استطاع بفضل شخصيته القوية أن يفرض سيطرته على مصر سنة ٥٩٦ هـ ، الى جانب أملاكه فى البلاد

---

(١٠) المصدر السابق — ص ١٨٠ .
(١١) ابن الأثير : الكامل — ج ١٢ ، ص ٤٠ .
(١٢) حافظ أحمد : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ١٢٧ .
(١٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٥١ .

الشامية ، فأصبح بذلك سيدا على معظم أملاك صلاح الدين ، فأدى للعالم الاسلامى بتوحيد تلك الامارات أجل الخدمات ، واستطاع أن ينقذ الدولة الأيوبية من الانقسام وأن يجنبها النهاية التى آلت اليها الدولة السلجوقية من قبل ، هذا وقد ورد ذكر الحروب الصليبية فى شعر ابن مقرب العيونى حينما وصلته أنباء انتصارات الملك موسى الأشرف الأيوبى فى دمياط فقال مشيدا بشجاعته(١٤) :

سل الكفر من أودى بدمياط ركنه
وقصر أعلى فرعه وهو باسق
يخبرك صدقا أن موسى هو الذى
بصارمه باقت عليه البوائق
وقد جاءت الافرنج من كل وجهة
كأن تداعيها السيول الدوافق(١٥)

الى أن يقول :

فلولاه لم ينطق بدمياط داعيا
الى كلمة التوحيد والعدل ناطق

(٣)

أما البحرين وطن الشاعر فقد كانت فى ذلك الوقت تحت حكم الأسرة العيونية التى ينتمى اليها شاعرنا ، وذلك منذ أن استولى عبد الله بن على العيونى على الحكم وقضى على القرامطة سنة ٤٦٨ هـ ،

---

(١٤) ديوان ابن مقرب ــ طبعة الاحساء ، ص ٣٠٠ .

(١٥) الديوان ــ طبعة الاحساء ص ٣٠٠ ، دمياط : مدينة قديمة تقع على الفرع الشرقى للنيل المسمى بفرع دمياط ، وقد كانت قديما تشرف على البحر الأبيض المتوسط ، أما الآن فقد طما النيل وامتدت الأرض بعدها مسافات كبيرة . وباسق : عال مرتفع باقت عليهم البوائق : أصابتهم الشرور والدواهى .

وبعد أن حكم عبد الله بن على مدة من الزمن توفى فخلفه أبناؤه من بعده ، ولكن أمراء الأسرة العيونية ظلوا فى نزاعات وخلافات مستمرة فيما بينهم مما أدى الى ضعفهم وطمع الأعادى فى انتزاع الحكم منهم، وهكذا استولى بنو عصفور على حكم البحرين فى حوالى العقد الرابع من القرن السابع الهجرى بعد أن حكمها العيونيون قرابة القرنين من الزمن[١٦] .

وكانت الدولة العيونية تدين بالولاء — ولو رمزيا — لبغداد مركز الخلافة الاسلامية شأنها فى ذلك شأن الأقاليم الاسلامية الأخرى ، وكانت العلاقات بين العيونيين وبين الخليفة العباسى علاقات حسنة وتقوم على الود والتعاون ، يدلنا على ذلك ما كان بين الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، والأمير محمد بن الحسين العيونى من احترام متبادل، حتى أن الخليفة من تعظيمه وتشريفه لهذا الأمير فرض له فى كل سنة من بغداد ألفا ومائتى ثوب من عمل مصر أكثرها ابرسيم . وفرض له فى البصرة كل سنة ألفا وخمسمائة حمل حنطة وشعير وأرز مدة حياته .

وافتخر ابن مقرب بذلك فقال :

منا الذى كل عام بالعراق له
رسم سنى الى أن ضمن الرجما[١٧]

وحدث فى احدى السنين أن خرجت بعض قبائل الجزيرة العربية عن طاعة الخليفة وقاموا بمهاجمة قوافل الحجيج ، فشكا الحاج الى الخليفة الذى أرسل من فوره الى الأمير محمد بن الحسين يأمره بمعاقبة هؤلاء الخارجين عن الطاعة جزاء ما فعلوه بقوافل الحجيج الآمنين ، فقام الأمير محمد بجمع قبائل البحرين معه وشن حملات مظفرة على

---

(١٦) سنذكر بالتفصيل تاريخ الأسرة العيونية فى الفصل الخاص بحياة الشاعر .
(١٧) الديوان — طبعة الأحساء ، ص ٥٤٩ .

هؤلاء الأعراب وأدبهم وأثخن فيهم ، وقبض على زعيمهم وأرسله مقيدا الى الخليفة يأمر فيه بأمره .

ولما قتل الأمير محمد بن الحسين على يد أصهاره ، استنجد ابنه الأمير فضل بن محمد بالخليفة للانتقام من قتلة أبيه ، فأمده الخليفة بخزينة كاملة فيها من العتاد والسلاح والأموال الشيء الكثير ، وحمل كل ذلك الشاعر ابن المقرب الذى كان فى ذلك الوقت فى بغداد ، واستطاع الأمير فضل بذلك أن ينتقم من أعداء أبيه ويقتلهم جميعا ، وذكر ابن مقرب قصة الخزينة فى شعره فقال :

رضى الخليفة هديه واختاره
وحباه بالحظ الجسزيل الأوفر
لباه جهرا واصطفاه له فتى
من بين أبناء النبيت وقيذر
وأمده بخزائن لو صبحت
ذات العماد لآذنت بتد عثر[١٨]

(٤)

عرفنا مما تقدم أن مصر وبلاد الشام كانت فى حالة ضعف شديدة نتيجة لانحلال هذا الجزء من العالم الاسلامى وانقسام زعمائه على أنفسهم ، رغم بعض الفترات التى كانت تبدو فيها البلاد متماسكة ، وقد زاد هذا الانحلال ما أحدثه الصليبيون من تأثير سياسى واقتصادى فى هذا المسرح التاريخى فجعله يشارك بلاد العراق وفارس فيما أصابهما من انحلال ، فلم يستطيع حكام مصر وبلاد الشام أن يوحدوا كلمتهم بحيث يستطيعون الوقوف الى جانب الخوارزميين ثم الى جانب

---

(١٨) الديوان : ص ٢٢٣ ، النبيت : أبو حى من اليمن واسمه عمرو ابن مالك . وقيذار بن اسماعيل أبو العرب ، ولعله عنى بهذا عرب الشمال والجنوب .

الخلافة العباسية فى بغداد عندما هم المغول باجتياح هاتين القوتين الواحدة تلو الأخرى[١٩] .

وقد توالت الغزوات المغولية على أقاليم الشرق الإسلامى منذ بداية القرن السابع الهجرى ، واستطاعوا اكتساح الدولة الخوارزمية فى سهولة ويسر واخضاع أراضيها فى مدة لا تزيد على أربع سنوات وتم لهم ذلك سنة ٦٢٠ هـ[٢٠] .

وظهر خطر المغول على أملاك الخلافة العباسية فى عهد مانجوخان (٦٤٦ هـ — ٦٥٨ هـ) الذى جهز حملتين كبيرتين احداهما بقيادة أخيه كوبلاى خان كان هدفها اتمام فتح بلاد الصين ، أما الثانية فقد أسند قيادتها الى أخيه الأصغر هولاكو ، كان الغرض منها القضاء على طائفة الاسماعيلية فى فارس ، ثم الاستيلاء على بغداد حاضرة الخلافة العباسية .

وفى التاسع من شهر ربيع الثانى سنة ٦٥٥ هـ ، أرسل هولاكو رسالة الى الخليفة العباسى المستعصم يدعوه فيها الى التسليم ، الا أن الخليفة لم يهتم فكانت النتيجة أن حاصر هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، ثم بعد استسلام الخليفة أعمل فيها النهب والسلب والتخريب[٢١] .

وبعد سقوط بغداد اتجه التتار نحو الغرب مكتسحين ما بقى من بلاد ما بين النهرين ، ثم خربوا حلب سنة ٦٥٨ هـ ، وقبل أن يتم اخضاع البلاد السورية عاد هولاكو الى بلاده وخلف وراءه قائده كتبغا لغزو مصر ، فاتجه هذا الأخير الى البلاد المصرية فى نحو عشرة آلاف مقاتل ، ولم يهتم المصريون بتهديده ووعيده ، وتمكن الظاهر بيبرس من أن يوقع بالمغول هزيمة منكرة فى موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ .

---

(١٩) حافظ أحمد : الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، ص ١٣٤ .
(٢٠) المصدر السابق ، ص ١٤٠ .
(٢١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٩٢ .

هذا وقد ذكر ابن مقرب التتار والافرنج عرضا فى قصيدة يمدح بها الأمير بدر الدين لؤلؤ ومنها :

فقاد الى الافرنج جيشا زهاؤه
عديد الحصا ذا أزمل وزمازم

وجيشا يوارى الشمس ريعان نقعه
الى الترك اذ جاءوا لهتك المحارم

اذا التتر الباغون ذاقوا لقاءه
تمنوا بأن كانوا دما فى المشائم(٢٢)

وكل هذه الشواهد تدل على أن شاعرنا لم يكن غائبا عن الساحة السياسية ولا عن هذه الحوادث الجسام التى شغلت الناس وأخذت بلبهم وأثرت فى مستقبلهم أيما تأثير .

(٥)

وللتدليل على ما وصلت اليه حال العالم الاسلامى من تفكك وانحلال فى تلك الفترة فقد أوردنا بيان بحال الامبراطورية الاسلامية الواسعة وقت سقوط الدولة العباسية فكانت حالتها على الشكل التالى(٢٣) :

١ — كانت بغرناطة من البلاد الأندلسية دولة بنى نصر ، والقائم بأمرها مؤسسها محمد الغالب بالله بن يوسف بن نصر (٦٢٩ هـ — ٦٧١ هـ) .

---

(٢٢) الديوان ، ص ٥١٧ ، الأزمل : الصوت المختلط ، والزمزمة : الصوت البعيد له دوى ، ريعان الشىء : أوله وشدته ، والنقع : الغبار ، والمشيمة : غشاء ولد الانسان يخرج معه عند الولادة .

(٢٣) المستشرقة يوجينا غيانه : تاريخ الدولة الاسلامية — طبعة بيروت ، ص ٣٥٧ .

٢ — بشمالى أفريقيا دولة الموحدين ، والقائم بأمرهم أبو حفص عمر المرتضى من نسل عبد المؤمن (٦٤٦ هـ — ٦٦٥ هـ) .

٣ — بالجزائر الدولة الزيانية ، والقائم بأمرها يغمر أسن بن زيان (٦٣٣ هـ — ٦٨١ هـ) .

٤ — بتونس الدولة الحفصية ، والقائم بأمرها ، أبو عبد الله محمد المستنصر بالله (٦٤٧ هـ — ٦٧٥ هـ) .

٥ — بمراكش ، الدولة المرينية ، والقائم بأمرها أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥١ هـ — ٦٧٥ هـ) .

٦ — بمصر ، دولة المماليك البحرية ، والقائم بأمرها المنصور نور الدين على بن المعز عز الدين ايبك (٦٥٥ هـ — ٦٥٨ هـ) .

٧ — باليمن الدولة الرسولية والقائم بأمرها المظفر بن يوسف بن المنصور عمر بن على بن رسول (٦٤٧ هـ — ٦٧٤ هـ) .

٨ — بصنعاء من أئمة الزيدية المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥١ هـ — ٦٨٠ هـ) .

٩ — بالروم من السلاجقة ركن الدولة قلج أرسلان الرابع (٦٥٥ هـ — ٦٦٦ هـ) .

١٠ — بماردين من الدولة الأرتقية نجم الدين غازى السعيد (٦٣٧ هـ — ٦٥٨ هـ) .

١١ — بفارس من الأتابكية أبو بكر بن سعد بن زنكى (٦٣٣ هـ — ٦٥٨ هـ) .

١٢ — ببلورستان من الأتابكية دكلى بن هزارسب (٦٥٠ هـ — ٦٥٧ هـ) .

١٣ — بكرمان من دولة قتلغ خان ، قتلغ حاقون (٦٥٥ هـ — ٦٨١ هـ) .

... ألا وأن حال العالم الاسلامى بهذا الشكل ألا يحق لشاعرنا بعد ذلك أن يشكو من زمانه ونوائب دهره ؟ .

الحيـــاة الاجتماعية :

(٩)

... خضعت البلاد العربية والاسلامية ما بين القرنين السادس والســـابع الهجريين لنظم اجتماعية لم يســـبق مشـــاهدتها فى العالم الاسلامى ، حيث كانت نظما طارئة أساسها الاقطاع الذى ساد العصور الوسطى فى أوروبا ، وكان طبيعيا والحال كذلك ألا يكون توزيع الثروة معتدلا بين طبقات الشعب المختلفة ، كما كان سواد الناس يتعرضـــون لنوبات وهزات اقتصادية عنيفة فى صورة مجاعات مخيفة متتالية تجتاح الناس فتكتسح منهم الآلاف اكتساحا .

ونتيجة هذه الاضطرابات فى المجتمع وعدم التوازن فى الدخـــول لجأ بعض الناس الى كثير من ألوان الكسب غير المشروع ، وكان الأدب وســـيلة من وســـائل الرزق — وكانت موضـــوعات التملق تغلب على المواطنين من الشعراء[٢٤] ، كذلك اتخذ الدين والصلاح والتقوى وسيلة من وسائل الرزق ، وظهرت جماعات لم يكن لها عمل فى الحياة الا أنهم متدينون صالحون ، وكان الأمير أو السلطان يتقرب للناس بتقريب هؤلاء وايوائهم ، وربما كانت الحروب الصليبية التى هددت كيان الشـــرق الاسلامى أول هزة عنيفة أعقبت عصر الاقطاع الذى أوجده نظام الملك منذ عهد السلاجقة وهـــزتهم وأثارت فيهم النخوة والحميـــة وجعلتهم يعيشون مع الأحداث ، ويعتبرون ما يجرى على أرضهم شيئا يتعلق بهم وبكيانهم ومستقبلهم .

وكان المجتمع الاسلامى فى ذلك الوقت يتكون من خليط امشـــاج من عناصر وجنسيات متعددة متباينة فى طبائعها وأخلاقها من العـــرب والترك والفرس والروم والأرض ومن سلالات أوروبية اســـتوطنت وتأقلمت ، ولكل جماعة من هؤلاء تراثها الفكرى والاجتماعى والدينى ،

---

(٢٤) د. محمد زغلول سلام — الأدب فى العصر الأيوبى — ص ٤٩ .

ولا شك أن اختلاط هذه العناصر جميعا أنبت أشياء كثيرة وجديدة فى نظم المجتمع وفى العادات والتقاليد وفى الأدب والفكر والدين .

وكان العنصر البارز فى هذه الجماعات هو العنصر التركى ثم الكردى ، وقد بدأ العنصر التركى يظهر عاملا فعالا فى العالم الاسلامى منذ أيام المعتصم الخليفة العباسى ، وكان الأتراك يجلبون غلمانا من أسواق النخاسة التى كانت منتشرة على أطراف الدولة الاسلامية يخطفون من القبائل المخيمة شمال وشمالى شرق بلاد فارس ، وكان هؤلاء الأتراك يمتازون بجمال الصورة وحسن البنيان والاستعداد الحربى الممتاز ، مما شجع الخلفاء وكبار رجال الدولة على الاكثار منهم لاستعمالهم خدما أو حرسا خاصا . وقد سبب تزايدهم اضطرابا فى المجتمع الاسلامى نظرا لصعوبة خضوعهم للقوانين والتقاليد(٢٥) .

أما العنصر العربى فكان قد فقد سيطرته نهائيا فى كثير من البقاع التى كان يغلب عليها ، وان ظلت آثاره باقية فى الشام والجزيرة وديار بكر وبعض أماكن متفرقة فى العراق ومصر ، ولا ننسى بلاد البحرين التى كانت تحت حكم العيونيين وهم عرب خلص أبا عن جد .

(٢)

وقد تكون الصورة السابقة للمجتمع الاسلامى فى ذلك العصر مصبوغة بلون قاتم ، الا أننا لا ينبغى أن نغفل عن بعض جوانبها المشرقة فانه على الرغم مما كان يسود المجتمع من العيوب والمفاسد فقد قامت كثير من الأعمال الانشائية والعمرانية على أيدى بعض الشخصيات القوية الممتازة أمثال نظام الملك الوزير السلجوقى ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى ، فنظام الملك هو مؤسس أول جامعة اسلامية كبرى ، وهى المدرسة النظامية التى سميت باسمه فى بغداد ، وقد خرجت كثيرا من العلماء فى القرنين السادس والسابع الهجريين ، وقد أنشأ نور الدين

---

(٢٥) حافظ حمدى — الدولة الخوارزمية ، ص ٣٦ .